

تخصيات مجهولة في الأدب العربي

إبراهيم بن سهل الأشبيلي

بقلم محمد الأمين بن محمد الخضر الشنقيطي

كثيراً ما رأيت من بعض الأدباء جهلاً شائناً بذلك الشاعر المطبوع إبراهيم بن سهل ؛ فخدمة للأدب ، وإحياء لذكره ، أتقدم بهذه الكلمة الموجزة إلى صحيفة العلم و(رسالة) الأدب ، راجياً أن أتبعها أخرى إن سمحت لي ظروفى وكان فى صفحات الرسالة متسع

نسب ، مبعوره ، وفاته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعيش بن سهل الأشبيلي ، نسبة إلى إشبيلية مدينة من أعظم المدن الأندلسية . ولد سنة ستانة وتسع عشرة هجرية ، ومات غربيقاً فى البحر وهو ابن أربعين ، سنة ستانة وتسع وخمسين هجرية كما ذكره أبو الحسن الطزرجى قال صاحب نفح الطيب : غرق وهو ابن أربعين سنة فى البحر . وقيل جاوز الأربعين . ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه . وذكر مالك بن الرحل فى غرقه قصة طويلة ، خلاصتها أنه كان من كتاب أبى على بن خلاص صاحب سبئة فأرسله مع ابنه إلى المستنصر ملك تونس فترقا فى البحر لشدة هيجانه . ولما بلغ المستنصر غرق ابن سهل قال : عاد الدر إلى وطنه

اسلام

كان يهودياً وأسلم . وقد اختلف العلماء والمؤرخون فى صحة إسلامه ، فمن قائل إن إسلامه كان ظاهراً وباطناً ، ومن قائل إنه فى الظاهر فقط . ولا بأس أن أقول هنا بعض أقوال الفريقين . قال محمد الصغير الأفرانى المراكشى : كان يهودياً ثم من الله عليه بالدخول فى الملة الحمديدية وحسن إسلامه . وقد مدح النبى صلى الله عليه وسلم بمصيدة بارعة ، قال أبو حيان وقفت عليها ، وهى من أبدع ما نظم فى معناها . وقال المزنى : كان يتظاهر بالإسلام

ولا يخلو من قدح وأنهام . وقال ابن سرزوق : صحح لنا من أدركنا من مشائخنا أنه مات على الإسلام . وقال صاحب نفح الطيب : اجتمع جماعة مع ابن سهل فى مجلس أنس فسألوه - لما أخذت منه الراح عن إسلامه - هل هو فى الظاهر والباطن أم لا ؟ فأجابهم : للناس ما ظهر والله ما استتر . وقال ابن سعيد القيسى فى كتابه القدح الملى : كتبت إلى ابن سهل استدعيه إلى أنس بثلاث أبيات فأجابنى سرعاً بأبيات آخرها

سألفها ألف المتيق كتابه ولا أشتغى ورداً واهلدى الخمر فلما وصل أظهرت استحسان سرعة جوابه غير أنى أنكرت عليه منزع بيته الأخير فقال : أليس فى الجنة نهر خمر ؟ فقلت : بلى فقال : حسبي ، لا أبنى به بدلاً . فقلت : بحرمة ما بيننا إلا ما أسدقنى هل أنت على دين أسلافك ، أم على دين المسلمين ، وأزات عنى شك الناس فيك . فقال : للناس ما ظهر والله ما استتر . وقال فى عنوان الدراية : سمعت شيخنا أبا الحسن الأندلسى يقول : شيثان لا يصحان : إسلام ابن سهل وتوبة الزغشرى من الاعتزال . وقد استدلل الأفرانى المراكشى على حسن إسلامه بقوله :

تسلط عن موسى بحب محمد

ولولا هدى الرحمن ما كنت أهتدى

وما من قلى قد كان ذاك وإنما

ثريمة موسى عطلت بمحمد

جاعلاً أنه قصد بموسى الكليم عليه السلام ، وبمحمد نبينا عليه الصلاة والسلام ، وعندى أنه لا دليل فى هذين البيتين (رغم اعتقاده حسن إسلامه) ، وأن موسى المذكور غلام كان يمشقه ، وذكر اسم محمد تورية ، وقد جاء ذكر موسى هذا فى شعره كثيراً ، من ذلك قوله :

كسانى موسى من مقام جفونه

رداء وأسقانى من الحب أكثوا

وقوله :

ليس تارى على موسى وحرمته

بواجب وهو فى حل إذا وجبا

وقوله :

أشاعوا أننى عبد لموسى نعم صدقوا على بما أشاءوا

شعره :

وله ديوان شعر مشهور ، وقفت عليه وهو في غاية الجودة ،
ولا بأس أن أثبت هنا من شعره ما يرخص الدرر ، ويكون
في هذه الأسطر بمثابة الفرر . من ذلك قوله :

مضى الوصل إلا أمنية تبعث الأسا

أدارى بها همى إذا الليل عسما
أتانى حديث الوصل زورا على النوى
أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائرا
أصبت الأمانى خذ قلبا وأنفسا
وقوله :

قلوا سيسلبك المذار سفاهة

وحصاد عمرى فى نبات عذاره
إن لم أمت قبل المذار فعندما
يبدو أبسـلم عاشق بفراره
مثل الفريق نجما فوافى ساحلا
قذا الأسود روابض بجواره
إن المذار صحيفة تتلو لنا

ما كان صان الحسن من أصراره
وقوله :

يا حسنه والحسن بعض صفاته

والحسن مقصور على حركاته
صاحته والليل يذكى تحتنا
نارين من نفسى ومن وجناته
أوثقتـه فى ساعدى لأنه

ظلى خشيت عليه من نفراته
والقلب يرغب أن يصير ساعدا
ليفوز بالآمال من ضماته

وقوله :

نظر جبرى قلبى على آثاره خلع المذار فلانما لشاره
يا وجد شأنك والزمان وخلقى
ما المرء مأخوذ زلة جاره

وفى بيته الآتين فصل القول أنه مشوقه لا السكيم
عليه السلام

موسى تنبأ بالجمال وإنما هاروت لا هارون من أنصاره
إن قلت فيه هو السكيم فخذ يهديك معجزة الخليل بناره
شهادات العلماء فيه

قال ابن القاضى فى كتابه درة الجمال : كان ابن سهل بمن
انتحل صناعة القريض فافتن بها وتصرف ، وعنى بهالم الأدب
فوعى وصرف ، إلى أن بلغ الغاية فى الشعر فصار فيه أوحـد ،
لا ينعت ولا يحد . وقال أبو الحسن الخـزرجى فى كتابه إعلام
الزمن : إبراهيم بن سهل كان شاعرا زمانه أسلم بعد يهوديته
ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة بديمة . وقال مالك
ابن المرحل : كان ممثا ابن سهل وقد حسن إسلامه ، ولازم صلاة
الجماعة ، ونظر فى الأدب فتبع فى الشعر . وقال الافرائى : وإن
من تتبع مقطعاته علم أن له خبرة واسمة بفن العربية كقوله :

أمومى أيا كلى وبعضى حقيقة

وليس مجازا فولى الكل والبعضا

خففت مقامى إذ جزمت وسائلى

فكيف جمعت الجزم عندى والخفضا

وفى هذين البيتين تنكيت على أبى القاسم الزجاج إذ قال
فى جملة : (وإنما قلنا بدل الكل والبعض مجازا) . وسئل
بعض المتأخرين عن السبب فى رقة نظمه ، فقال : لأنه اجتمع فيه
ذلان : ذل المشتى وذل اليهود

عفاة

وقد كان فيها بظهر من كلامه عفا الأزار ، وبيته المشهور
من أعظم الأدلة على ذلك وهو :

وأبى عفاى أن أقبل تدره والقلب مطوى على جمراته
وقوله :

بننا نشمع والعفاة ندينا نخرين من غزلى ومن كلامه

وقد ذهب ابن القاضى فى شرحه لأبيات الذهبى لما تمرض
لابن سهل إلى أن هذا من صناعته لا طبيعته ، ولعمري إن هذا
منه توربك وتعامل ؛ وإلا فأن مانع من أن يكون العفاة
فيه سجية ؟

موت صديق

للطبيب الفرنسي Xavier de Maistre

من كتابه «رحلة حول نهراني»

ترجمة الأستاذ خليل هندأوى

سميد ذلك الذى يجد صديقاً بلائمه منه قلبه وروحه . صديق
يجمعه به وحدة ذوق ، وألفة عاطفة ، وجامعة معرفة . صديق
لا يقلقه طمع ولا تسيره مصلحة . صديق يؤثر ظل شجرة على
ترف مدينة . سميد من يملك صديقاً !

كان لى صديق اختصره الموت منى فى عنفوان صباه ، ومطلع
عمله ، فى العهد الذى أصبحت صداقته حاجة لقلبي شديدة . كنا
نتآزر معاً على أعمال الحرب ، ولم يكن لنا الأغليون واحد تتناوبه
وكأس واحدة نشرب بها ، وسقف خيمة واحدة يظللنا . فى
الظروف التمهة كان لنا ذلك الحقف حيث كنا نحيا معاً وطناً
جديداً . رأيتُه ينجو من كل مهالك الحرب ويسلم من أهوالها
كأنما الموت كان يدخر أحداً للآخر ، وكأنما نفذت نباله التى
صوبها إليه دون أن تصيبه . ولكن هذا لم يكن إلا ليكمل
فقدته — عدى — أكثر ترويحاً . ولقد كان فى قمعة السلاح
والدهول الذى يملك النفس من جراء الأخطار ما يحول
دون بلوغ آلام زعجه إلى عاطفتى وإحساسى . وموته قد يكون
نقماً لوطنه وشوماً على أعدائه . لو كان ذلك لكان أسقى عليه
قليلاً ، ولكنى فقدته فى وسط المسرات ورأيتُه يحتضر بين
ذراعى فى حين كانت تقوى صحته وتتوثق روابط مودتنا فى
أيام الراحة والسكون

آه إننى لن أتمزى عن فقدته ، وإن ذكره لا تبرح قلبى
ولا تحيا إلا فى طواياه . وإنها لن تكون فى الذين كانوا يحيطون
به أو الذين حلوا محله . هذه الفكرة تجعل وقع فقدته أنأى على
النفس وآلم للقلب . وهذه الطبيعة التى تتراعى لنا خلية لا نبألى
حظ الناس تضع رداء ربيعها الزاهى وتزين بأبهى حلل جمالها

(البقية على صفحة ١١٤٢)

دنف ينيب عن الطبيب مكانه

لولا ذبال شب من أفكاره

للدمع خد فوق صفرة خده

فتراه مثل النقش فى ديناره

وقوله :

ردوا على طرفى النوم الذى سلبا

وخبروني بقاى أية ذهبا

علت لما رضيت الحب منزلة

أن الزام على عيني قد غضبا

فقلت واحربا والصمت أجدر بى

قد يفض الحزن إن ناديت واحربا

وقوله :

يقولون لو قبلته لاشتقى الجوى

أيطمع فى التقبيل من بعشق البدرا

ولو غفل الراضى لقبلت نعله

أنزهه أن أذكر النحر والثفرا

ومن لى بوعد منه أشكو بخلفه

ومن لى بوعد منه أشكو به الفدرا

وما أنا بمن تحمل الريح شوقه

أفار حفاظاً أن أبوح له مرا

وقد أبدع فى فنون البيان وأنى فى شعره منها بالسجب

العجاب . فن حسن توجيهه قوله :

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلى

فأسقينى بالبعد فأنحة الرهد

فبالله برد ما بقلبي من الجوى

بفأتممة الأعراف من ريفك الشهد

وله موشح كبير ، أبدع فيه وأجاد ، تبارى العلماء فى شرحه

وإظهار معانيه ودرره ، برهن فيه على سعة باعه فى العربية

والصناعة الشعرية ، أوله

هل درى ظي الحى أن قد سما قلب صب حله عن مكبس

فهو فى جر وخفض مثلاً لعبت ربح الصبا بالقبس

ولملى فى فرصة أخرى أتمكن من شرح بعض أبياته وإبراز

مكنوناته والله الوفى والهادى إلى سواء السبيل